قصة كتاب :

يتيمـــــة الدهر

للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

كنت أظن أن اسم « يتيمة الدهر » وقف على كتاب أبي منصور الثعالبي المعروف ، حتى عثرت منذ سنوات في خزانة المرحوم أحمد تيمور باشا — على رسالة صغيرة الحجم بسماة يتيمة الدهر للوزير السيد أبي الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه .

وهذه الرسالة في ٦١ ورقة مكتوبة بخط نسخي جميل مشكول وكل صفحة في أحد عشر سطراً ، وعلى الرغم من شدة عناية المرحوم تيمور باشا بمخطوطات خزانته ، وحرصه الزائد على ذكر مؤلفيها وبيان عصورهم وطرف من تراجمهم — لم أجد في فهارس الخزانة ما يكشف الغطاء عن شخصية مؤلف هذه الرسالة ، وأخذت أقلب الكتاب لعلي أجد في ثناياه ما ينم عن هوية مؤلفه فلم أجد إلا تلك العبارة المسطرة في رأس الصفحة الأولى منه وهي: « كتاب يتيمة الدهر . بسم الله الرحمن الرحيم . قال الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن علي رضي الله عنه : الحمد لله العلي الكبير ، القوي القدير ، العليم الخبير ، السميع البصير ... إلى أن يقول : أما بعد ، فإن أحق ما نطق به لسان ، وأعرب عنه بيان ، وانطوى عليه كتاب ، وانتهى إليه خطاب ، ما زاد في قوة البصيرة ، وعاد بصحة السريرة ، وطرق طرائق العدل ، وبين حقائق الفضل ، فصار تذكرة للأخيار ، ومزجرة للأشرار ، وقوة لأولي الألباب والأبصار ، وإماماً للعمال ، وقواماً للأعمال ، يرجع إليه الساسة ، وتبنى عليه السياسة ، وتنظم به الأسباب ، وتتجمع فيه الآداب .

وإن الأدب أدبان : أدب شريعة ، وأدب سياسة ؛ فأدب الشريعة ما قضى الفرض ، وأدب السياسة ما عمر الأرض ، وكلاهما يرجع إلى العدل الذي به سلامة السلطان ، وعمارة البلدان ، وصلاح الرعية ، وكمال المزية ، لأن من ترك الفرض ظلم نفسه ، ومن خرب الأرض ظلم غيره » . في مقدمة طويلة على هذا النسق من سجع قصير غير متكلف استغرق ثماني صفحات من الأصل إلى أن يقول في آخر المقدمة : « وقد جمعنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظاً وجيزة ، وأجريناها مجرى الأمثال ، وفصولا قصيرة قد جعلناها عمدة للولاة والعمال ، وعدة للعقلاء وذوي الأعمال ، وقصدنا فيما ألفناه من ذلك وجه الاختصار ليقل لفظه ، ويسهل حفظه ، وجعلناه ألف فصل ومثل في ثمانية أبواب :

الباب الأول : في الاستعانة على حسن السياسة

الباب الثاني : في الاستعانة على فضيلة العلم والعمل

الباب الثالث : فيما يستعان به على الزهد والعبادة

الباب الرابع : فيما يستعان به على أدب اللسان

الباب الخامس : في الاستعانة على أدب النفس

الباب السادس : في الاستعانة على مكارم الأخلاق

الباب السابع : في الاستعانة على حسن السيرة

الباب الثامن : في الاستعانة على حسن البلاغة

واستعنا فيما وضعناه من ذلك بالله الجليل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

* * *

ثم قام أحد الناشرين بطبع هذا الكتاب ، وكتب له أحد كبار رجال القضاء الشرعي مقدمة نفيسة ، وصرح كاتب المقدمة بأنه لم يعثر على ترجمة المؤلف ، ولم يشر إلى أن هذه الرسالة طبعت قبل هذه المرة

والواقع أن هذه الرسالة قد طبعت في القاهرة من نحو خمسين سنة ، وإذا أردنا التحديد قلنا : إنها طبعت سنة ١٣١٧ هـ مسماة بغير اسمها ، منسوبة إلى غير مؤلفها ، فقد طبعت على هامش كتاب « نثر النظم وحل العقد » لأبي منصور الثعالبي ، وسميت « كتاب الفرائد والقلائد » ، ونسبت إلى أبي منصور الثعالبي أيضاً ، وذلك بالمطبعة الأدبية بسوق الخضار القديم بمصر سنة ١٣١٧ هـ ، ثم طبعت هذه الرسالة مرة أخرى بعنوان « كتاب الأمثال المسمى بالفرائد والقلائد ، ويسمى أيضاً بالعقد النفيس ونزهة الجليس » ،

ونسب فى هذه المرة أيضاً إلى أبى منصور الثعالبى . وهذه الطبعة مطبوعة فى مطبعة التقدم التجارية بحارة العنبة رقم ١٠ بشارع محمد على بمصر وليس عليها تاريخ الطبع

وهكذا فقد طبع هذا الكتاب مرتين — ولعله طبع مرات أخرى لا نعرفها — مسمى بغير اسمه الحقيقى — ونسب إلى غير مؤلفه فى كلتا المرتين ؛ حتى عثر على نسخة الخزانة التيمورية ، فعرف أن اسمه الحقيقى هو « يتيمة الدهر » ، وأن المؤلف هو الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن على رضى الله عنه .

* * *

بقى أن نعرف من هو السيد أبو الحسين صاحب كتاب «يتيمة الدهر » ؟ وفى أى عصر عاش ، وما هى مكانته الأدبية ؟

لقد أطلت البحث عن ترجمة للسيد أبى الحسين ، وبذلت كثيراً من الجهد والوقت ، ولكن حياة هذا السيد الكريم ما زالت غامضة خفية . لم أستطع كشف القناع عنها ، فإنى مع كثرة ما بحثت وراجعت من المراجع لم أجد للسيد أبى الحسين ذكراً إلا ما ورد فى رسائل بديع الزمان الهمذانى فى سياق تلك المناظرة التاريخية التى وقعت بين البديع والخوارزمى فى نيسابور سنة ٣٨٣ هـ ، فقد ذكر البديع الهمذانى اسم السيد أبى الحسين أكثر من مرة واحدة فى أثناء حكايته لتفصيلات تلك المناظرة ، وذكر أن السيد أبا الحسين كان أحد شهود المناظرة المحكمين ، وأنه كان يناصر الخوارزمى ، وأن الخوارزمى كان يلجأ إليه ويخصه بالحديث والالتفات فى الجلسة الأولى للمناظرة ، فلما كان المجلس الثانى احتال البديع على السيد أبى الحسين ، واستماله إلى جانبه بقصيدة أنشده إياها فى مدح أهل البيت والتشيع لهم ، واستمع إلى البديع حيث يقول : « ... ثم حضر السيد أبو الحسين وهو ابن الرسالة والأمامة ، وعامر أرض الوحى ، والمحتبى بفناء النبوة ، والضارب فى الأدب بعرقه ، وفى المنطق بحذقه ، وفى الإنصاف بحسن خلقه ، فجثم إلى المجلس قد سيفه ، وجعل يضرب عن هذا الفاضل — أبى بكر الخوارزمى — بسيفين لأمر كان قد موه عليه ، وحديث كان قد شبه لديه ، وفطنت لذلك فقلت : أيها السيد ! أنا إذا سار غيرى فى التشيع برجلين ، طرت بجناحين ، وإذا مت سواى فى موالاة أهل البيت بلمحة دالة توسلت بغرة لائحة ، فإن كنت أبلغت غير الواجب فلا يحملنك على ترك الواجب ، ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر ، وركبت الأفواه ، ووردت المياه ، وسارت فى البلاد ، ولم تسر بزاد ، وطارت فى الآفاق ، ولم تسر على ساق ، ولكنى لا أتسوق بها لديكم ، ولا أتنفق بها عليكم . وللآخرة قلتها لا للحاضرة ، وللدين ادخرتها لا للدنيا

فقال : أنشدنى بعضها فقلت :

يا لمـــة ضرب الزما ن على معرسها خيامه
لله درك من خزا مى روضة عادت تمامه
لزية قامت بهـا للدين أشراط القيامه
بفرج بدم النبو ة ضارب بيد الأمامه
متقسم بظبا السيو ف مجرع منها حمامه
منع الورود وماؤه منه على طرف الثمامه
نصب ابن هنـد رأسـه فوق الورى نصب العلامه

إلى آخرها ، وهى قصيدة فى نحو خمسة وعشرين بيتاً كلها على هذا الطراز

قال البديع : « فلما أنشدت ما أنشدت ، وسردت ما سردت ، وكشفت له الحال فيما اعتقدت ، انحلت له العقدة ، وصار سلماً ، يوسعنا حلماً »

* * *

هذا كل ما وجدته عن السيد أبى الحسين ، ومنه يظهر مكانه فى العلم والأدب ، كما يعلم أنه من معاصرى البديع والخوارزمى ومقارعيهما ، وأنه كان موجوداً فى أواخر القرن الرابع الهجرى

بقى أن نعرف : هل هذا السيد الذى قص البديع الهمذانى خبره — هو الوزير السيد أبو الحسين بن أحمد بن الحسن بن على رضى الله عنه صاحب كتاب يتيمة الدهر ؟ .

ذلك ما لا سبيل إلى الجزم به الآن ، ولعل فى قراء «الرسالة» القراء من يعرف عن كتاب « يتيمة الدهر » ومؤلفه السيد أبى الحسين أكثر مما نعرف . فإلى أولئك أوجه الرجاء أن يتفضلوا بنشر ما لديهم من المعلومات مشكورين .

برهان الدين الداغستانى